# العالم إرادة وتمثلاً لشوبنهور

بقلم
الدكتور فؤاد زكريا
أستاذ مساعد بكلية الآداب – جامعة عين شمس

## حياة شوبنهور

إذا كان تفسير آراء كثير من الفلاسفة من خلال وقائع حياتهم يخفق فى أحيان غير قليلة ، فانه ينجح قطعاً فى حالة شوبنهور ، لأن وقائع حياته تكشف نقاطاً كثيرة فى مذهبه الفكرى ، أو على الأقل ترتبط بهذه النقاط ارتباطاً واضحاً . وهو فى ذلك على النقيض من أستاذه « إيمانويل كانت » ، الذى لم يكن النمط الرتيب الجاف الذى سارت عليه حياته يكشف عن أى شىء من آرائه ، ولا يمكن أن يرتبط بأية طريقة خاصة فى التفكير . وستتضح هذه الحقيقة عن شوبنهور بجلاء خلال العرض الذى سنقدمه لحياته .

ولد أرتور شوبنهور Arthur Schopenhauer فى مدينة دانتسج فى ٢٢ فبراير عام ١٧٨٨ . وكان أبوه تاجراً ثرياً ، يهتم بعض الاهتمام بالمسائل الثقافية ، غير أنه كان يتميز بنوع من الاستقلال فى الآراء وجفاف الطبع .أما أمه فكانت امرأة ذات مواهب عقلية رفيعة ، اشتهرت يوماً ما بوصفها كاتبة قصصية ، وكان لها فيما بعد منتدى أدبى ( صالون ) فى فيمار . ولقد أبدى « أرتور » فى طفولته مقدرة عقلية ممتازة ، وعكف بعد ذلك على دراسة العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية ، ثم انتقل إلى دراسة الفلسفة فى وقت متأخر نسبياً فى جامعتى جوتنجن وبرلين . وفى عام ١٨١٣ ألف أول كتبه ، وهو « الأصل الرباعى لمبدأ السبب الكافى » ، وهى رسالة حاز بها درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة يينا ، وعرض فيها نظرية فى المعرفة مبنية على رأى « كانت » فى مثالية الزمان والمكان والمقولات .

وفى خلال إقامته فى درسدن ، فى المدة من سنة ١٨١٤ إلى سنة ١٨١٨ ، أنتجت عبقريته الخلاقة كتاباً فلسفياً ضمّنه خلاصة تفكيره ، وكان سنه عندما انتهى منه ثلاثين عاماً ، فكان مما يدعو إلى الدهشة حقاً أن يكتمل تفكيره ويبلغ كل هذا القدر من النضج وهو فى هذه السن المبكرة . هذا الكتاب ، الذى عبر عن مذهب شوبنهور أكمل تعبير ، هو « العالم إرادةً وتمثلا » وعنوانه فى الألمانية Die Welt als Wille und Vorstellung وإنه لمن الأمور التى تسترعى النظر أن شوبنهور قد عاش واحداً وأربعين عاماً بعد نشر هذا الكتاب ، لم يجد خلالها ما يدعوه إلى الرجوع عن أفكاره الرئيسية التى تضمنها كتابه هذا . ومن المعروف أنه كان منذ حداثته يحتفظ بكراسة مذكرات يدون فيها ما يخطر له من

الأفكار ، وهكذا كان الكتاب تعبيراً موضوعياً عن نظرته العامة إلى الحياة ، تلك النظرة التى لم يتخل عنها إلى النهاية .

وفى سنة ١٨١٩ تولى شوبنهور منصباً للتدريس بجامعة برلين ، فبلغت به الجرأة أن حدد لمحاضراته نفس مواعيد محاضرات هيجل ، ولكنه بطبيعة الحال لم يستطع أن يجتذب المستمعين من فيلسوف ألمانيا الأكبر. وفى سنة ١٨٢١ اعتزل التدريس ، ثم اعتكف فى « فرانكفورت آم مين » ، حيث عاش حياة منعزلة ، موحشة ، بلا أصدقاء سوى كلب أطلق عليه اسم « آتما » ( وهى « النفس الكلية » عند الهنود ) . وكان سبب اعتكافه هذا واضحاً. فقدأخفق تماماً فى التدريس، كما أن كتابه الرئيسى لم يلق أى نجاح ، فى الوقت الذى كان يرى فيه هيجل وشلنج وفشته ، الذين كانوا فى رأيه أقرب إلى الدجل منهم إلى الفلسفة الصحيحة ، يُرفعون إلى مصاف العباقرة ، ويلقون أعظم النجاح فى جميع الأوساط . وظل شوبنهور يعيش هذه الحياة الموحشة المعتمة ، مع تأليف كتب أخرى أقل أهمية ، حتى مات عام ١٨٦٠ ، ولكن الشهرة كانت قد بدأت تهبط عليه فى العقد الأخير من حياته ، وخاصة عندما ألف « يوليوس فراونشتت "Julius Frauenstädt" كتابه « رسائل عن فلسفة شوبنهور » "Briefe über die Schopenhauersche Philosophie" ، ولكن كان واضحاً أن الشهرة قد أتت بعد فوات الأوان ، إذ لم تفلح فى إضفاء أى قدر من البهجة على حياته الكئيبة .

## مؤلفات شوبنهور

بدأ شوبنهور حياته التأليفية ، كما قلنا ، بكتابه « الأصل الرباعى لمبدأ السبب الكافى » "Über die vierfache Wurzel des Satzes vom zureichenden Grunde" وهذا الكتاب يكون مدخلا ضروريا إلى فهم كتابه الرئيسى الذى نحن بصدده ، وإن يكن قد تأثر فيه بكانت أكثر مما ينبغى . وبعد عامين (أى فى ١٨١٥) ألف كتاباً فى نظرية الألوان ، بعنوان « فى الإبصار والألوان Über das Sehen und die Farben ، ثم كتابه الرئيسى « العالم إرادة وتمثلا » فى سنة ١٨١٩ . وفى فترة عزلته الأخيرة ألف عن « الإرادة فى الطبيعة » "Über das Willen in der Natur" عام ١٨٣٦ ، وكتاب « المشكلتان الأساسيتان فى الأخلاق "Die beide Grundprobleme der Ethik" فى عام ١٨٤١ ، وكذلك كتاب «تكملات وإضافات "Parerga und Paralipomena" عام ١٨٥١ .

على أن شوبنهور لم يكن قد اكتفى بالجزء الذى تحدثنا عنه من كتابه الرئيسى «العالم إرادة وتمثلا » . ففى عام ١٨٤٤ ، أى بعد خمسة وعشرين عاماً من ظهور الطبعة الأولى ، أخرجه فى طبعة ثانية تتألف من مجلدين كان المجلد الأول منهما مماثلا تقريباً للطبعة الأولى ، أما المجلد الثانى فكان يتألف من خمسين فصلا تتضمن مناقشات تدور حول الأفكار الرئيسية التى تضمنها المجلد الأول . ولقد كان لهذا المجلد الثانى طابع موسوعى جامع ، يشهد بمدى نضوج تفكير شوبنهور وتعمقه ، بحيث أصبح المجلدان معاً يكونان عملا من أعظم الأعمال الفلسفية على الإطلاق .

## الأفكار الرئيسية فى كتاب « العالم إرادة وتمثلا »

قلنا أن الإلمام بكتاب « الأصل الرباعى لمبدأ السبب الكافى » ضرورى من أجل فهم كتاب شوبنهور الرئيسى الذى هو موضوعنا الآن ، إذ أن شوبنهور كثيراً ما يشير إليه فى كتابه الكبير ، ولا سيما فى المجلد الأول ، حيث ذكر صراحة أن هذا المجلد لا يُفهم إلا إذا اتُّخذ الكتاب الآخر مقدمة له . ففى كتاب «الأصل الرباعى» هذا يناقش شوبنهور نظرية المعرفة ، ولا سيما مشكلتها الرئيسية ، مشكلة الإدراك الحسى . وهو يرى أننا عندما ندرك شيئاً بحواسنا ، لا تنقل إلينا الحواس سوى

مواد بسيطة ، لا تكفى لكى نعرف شيئاً بالمعنى الصحيح ، وإنما تقوم ملكة الإدراك لدينا ، وهى ملكة ذهنية ، بتكملة ما يرد إلينا من الحواس . وتكملتها هذه أساسية ،حتى أننا نستطيع أن نقول إن إدراكنا « عقلى » لا « حسى » ، وأن ذهننا هو الذى يكوّن صورة العالم الخارجى بما فيها من تنوع وثراء . ففيم تنحصر فاعلية هذا الذهن ؟ وما هى العناصر التى يأتى بها من ذاته لكى يصبغ العالم بصورته الخاصة ؟ لقد سبق أن قال الفيلسوف الألمانى « كانت » إن هذه العناصر هى « المقولات » الاثنتا عشرة ، التى لا يعنينا هنا أن نعددها كلها . ولكن شوبنهور يختبر رأى « كانت » هذا بدقة، فيستبعد إحدى عشرة مقولة من هذه ، ليستبقى واحدة فقط ، يرى أنها هى الأساسية : تلك هى مقولة العلية . وهو يضيف إليها صورتى المكان والزمان ، وهما بدورهما ذاتيتان لا وجود لهما خارج الذهن ، أى أنهما ، كالعلية ، وظيفتان باطنتان لذهننا ، تصاغ فيهما كل تجربة ممكنة يدركها الإنسان . فكل ما حولنا ، وما يخطر ببالنا ، وما يتراءى لنا بطريق مباشر أو غير مباشر ، وهو إما علة أو معلول ، وهو يحتل مكاناً ويمر فى زمان . وعن طريق هذه الصور الثلاث ينظم ذهننا العالم الخارجى والعلاقات بين الأشياء فيه . وهذه المعانى الثلاثة ليست مستمدة من التجربة ، بل إن التجربة لا تكون ممكنة إلا إذا صيغت فيها . فتلك الصور الثلاثة إذن « أوليـــة "A priori"

ويلخص شوبنهور تلك الصفة التى تكون الأشياء بموجبها معتمدة على الذهن ، ومرتبطة بعضها ببعض فى الإطار الذهنى ، بقوله إن الأشياء تخضع لمبدأ السبب الكافى . ولهذا المبدأ أربعة مظاهر ( هى التى تكوّن « أصله الرباعى » ) ، أولها مظهر التغير : فهو يتخذ أولا مظهر قانون العلية الذى يتحكم فى تغير الظواهر ويربطها بعلاقة المعلول . وهو يتخذ ثانياً مظهراً منطقياً مجرداً ، تكون فيه المقدمة المنطقية علة أو أساساً للنتيجة .

وله مظهر ثالث هو الوجود فى المكان والزمان ، كما هى الحال فى قضايا الهندسة التى تؤدى فيها إحدى العلاقات إلى علاقة أخرى بالضرورة . وأخيراً يتخذ مظهراً نفسياً أو أخلاقياً فى الإنسان ، حيث يؤدى الباعث المعين إلى ظهور فعل معين . وهكذا فان مبدأ السبب الكافى يتناول الصورة التى « نتمثل » العالم عليها ، وهو يتعلق « بشكل » العالم كما يتبدى لنا ، أى بالطابع الذى يضفيه ذهننا عليه . ولكن لا بد من أن يكون هناك ، من وراء هذا الشكل أو الطابع الذى يظهر عليه العالم لذهننا ، كيان باطن هو الذى أطلق عليه« كانت » اسم « الشيء فى ذاته » ، وهو الذى يمكننا أن نعده قلب الوجود الحقيقى ، تمييزاً له من المظهر الذى يتبدى عليه هذا الوجود لإدراكنا .

وإذا كنا قد توسعنا قليلا فى شرح آراء شوبنهور فى هذا الكتاب ، فذلك لأن هذه الآراء ترتبط مباشرة بأفكاره الرئيسية فى كتاب « العالم إرادةً وتمثلا » ، وتمهد الطريق لمذهبه الكامل الذى يفترضها مقدماً .

فهو يبدأ كتابه بالحديث عن العالم من حيث هو مظهر ، أعنى العالم من حيث هو موضوع لإدراكنا ، عالم الأشياء ، وعالم الطبيعة . هذا العالم فى أساسه تمثُّل Vorstellung : أى أن الذات التى تدركه هى التى تجعله موضوعاً لها ، ومن هنا فهو « تمثلى » ، أى أننى أنا الذى أمثله لنفسى على نحو ما . ولقد أيدت أبحاث العلوم الطبيعية هذا الرأى ، إذ قالت بأن الألوان أو الأصوات ذاتية ، أى أنها ليست صفات فى الأشياء نفسها ، بل تضفيها الذات على الأشياء ، وأكده الفيلسوف الألمانى « كانت » ، حين جعل المكان والزمان صوراً ذاتية ، وكذلك المقولات التى تفهم الذات من خلالها العالم الخارجى ، وإن يكن شوبنهور قد اختلف مع « كانت » ، كما قلنا ، فى عدد المقولات وأهميتها النسبية .

على أن هناك عنصراً أساسياً فى العالم لا يخضع لصفة « المظهرية » هذه ، أى لا يتبدى من خلال أشكال

تخلعها عليه ذاتنا ، وإنما يتبدى فى أصالته وعلى نحو مباشر . فاذا كان جسم الإنسان يخضع لشروط الزمان والمكان والعلية ، فإننا نشعر أيضاً بأن لنا كياناً آخر لا يخضع لهذه الشروط ، ولا يتغير بتغير الزمان أو المكان ، ويستطيع التغلب على قيود العلية ، أو البدء فى أفعال جديدة دون الخضوع لهذه القيود . ذلك الكيان هو « الإرادة » . فالجسم ذاته يعد ، بالنسبة إلى هذه الإرادة ، « مظهراً » لها ، تدفعه حيث شاءت ، وتتحكم فيه بشروطها الخاصة . ويمد شوبنهور نظرته هذه إلى الطبيعة بأسرها : فمن الممكن أن نتصور الكون كله على مثال الإنسان ، بحيث يكون المجرى المادى للظواهر الطبيعية مماثلا لجسم الإنسان ، بينما يوجد من وراء هذا المجرى المادى كيان آخر للطبيعة تتمثل فيه ماهيتها الحقيقية ، ويكون هو « الإرادة » المنبثة فى كل أرجاء الكون ، والقوة المتحكمة فيه . فكل ما نعرفه فى الطبيعة من قوى وطاقات تنتج أفعالا وتأثيرات ، إنما هى أشكال تتجلى فيها الإرادة الشاملة فى العالم . وهكذا يستمد شوبنهور من فكرة « القوة » أو « الطاقة » التى تلعب دوراً هاماً فى العلوم الفيزيائية ، تأييداً لرأيه القائل إن الماهية الأصلية للكون إرادة تتحكم فى ظواهره المادية مثلما تتحكم الإرادة البشرية فى ظواهر الجسم الإنسانى . ولا يقتصر الأمر على الظواهر الفيزيائية وحدها ، بل إن هناك إرادة واحدة من وراء كثرة الظواهر الفسيولوجية والنفسية . وهكذا فبينما تقوم علوم الفيزياء والبيولوجيا وعلم النفس بملاحظة الظواهر الكثيرة موضوعياً ، وتحديد قوانينها فى المكان والزمان ، وتعيين ما هو علة وما هو معلول منها ، فإن هناك مبحثاً آخر ، هو « الميتافيزيقا » ، مهمته أن ينفذ من وراء هذه الكثرة الموضوعية إلى الكيان الأصلى الذى يتحكم فيها ، وهو « إرادة » العالم .

فاذا كانت ماهية الإنسان وماهية الكون الأصلية هى الإرادة ، فلا جدال فى أن الصورة التى سترسم لحياة الإنسان ولمجرى الكون ستكون قاتمة إلى حد بعيد . ذلك لأن الإرادة ليست مبدأ عاقلا منظماً ، يستهدف غايات محددة ويسير نحو تحقيقها تبعاً لخطة مرسومة ، وإنما هى أساساً اندفاع أعمى ، وقوة طاغية لا ضابط لها ولا نظام ، أما ذلك الذى نطلق عليه اسم العقل ، أو الروح ، أو الذكاء ، فما هو إلا أداة فى يد هذه القوة الغاشمة تتحكم فيها كما تشاء . وطالما أنها هى المبدأ الأساسى فى الكون ، فلا بد أن يكون تاريخ البشرية كله سجلا للأعمال المتخبطة لهذه الإرادة ، مثلما أن التاريخ الفردى حافل بالخداع ، خلو من المعنى ، ليس له من نهاية سوى الموت المحتوم . فالعالم فى أساسه لامعقول ، ومضاد لكل منطق .

وليس من الصعب أن يدرك المرء فى هذه الصورة المعتمة التى رسمها شوبنهور للعالم ، وفى التشاؤم الذى أصبح طابعاً مميزاً لفلسفته ، صدى للإخفاق الذى لقيه فى حياته ، ولعجزه عن تحقيق رغباته واضطراره إلى اعتزال عالم الناس . ولكنه فى الوقت نفسه يمكن أن يعد مظهراً من مظاهر أمانته العقلية ونزاهته الأخلاقية : إذ لم يستطع أن يعيش طويلا مع الأكاذيب ، أو أن يوفق بين ضميره وبين الخداع الذى واجهه فى الحياة ، فآثر أن يبتعد عن المجتمع ويعلن عداءه للحياة بدلا من أن ينافقها ويتعايش معها من وراء ضميره . ولقد تمكن خلال هذه النظرة التشاؤمية ، المترفعة عن واقع الناس ، من أن يتعمق فى طبائع البشر وهو ينظر إليها عن بُعد ، وأن يكتسب دقة نادرة فى ملاحظة النفس البشرية ونواحى الضعف فيها ، فأثبت فى كتاباته أنه عالم نفسى من الطراز الأول ، وذلك فى مجال الفهم العملى لطبيعة الإنسان ، ، لا فى المجال النظرى بطبيعة الحال . ونجم عن ذلك أن اكتسبت فلسفته طابعاً شخصياً إلى حد بعيد ، بحيث يشعر قارئه على التو بالصلة الوثيقة بين الفكر والمفكر ، على عكس الحال فى مذهب خصمه «هيجل» ، الذى حرص على أن يكون مذهبه لاشخصياً ،

وعلى أن ينسب إليه حقيقة موضوعية تعلو على تغيرات الزمان والمكان . وإذا كان مذهب شوبنهور قد افتقر إلى مثل هذه الحقيقة الموضوعية ، فلا جدال فى أنه قد عوضها بحقيقة أخرى ذاتية نحس فيها بحرارة الشخصية الإنسانية التى خلقت هذه الحقيقة ، وبصدقها وإخلاصها الكامل .

ولكن هناك ، مع كل هذا الطابع التشاؤمى وكل هذه اللامعقولية التى يتسم بها العالم، طريقاً إلى الخلاص . هذا الطريق له مرحلتان : مرحلة مؤقتة ، ومرحلة نهائية كاملة . والمرحلتان معا تتميزان بمحاولة قمع أصل الشر فى العالم ، وهو الإرادة .

أما المرحلة المؤقتة ، فهى مرحلة الفن . ففى الفن يمارس الإنسان نشاطاً خالصاً ، لا يؤثر فيه نزوع الإرادة أو طموحها ، ويتحرر من كل الأغراض والأهداف المميزة للإرادة . فأنت حين تمارس نشاطاً فنياً ، لا تفعل ذلك لأن لإرادتك هدفاً محدداً ترد بلوغه ، بل إن هذا النشاط خالص من كل غرض ، وما هو إلا تأمل لأنماط وصور خالصة . وهو يعلو على الصفات الجزئية فى الأشياء ، ويتأملها فى صورتها الكلية الخالصة : ففى العمارة نرى فاعلية القوة خالصة ، وفى الفنون التشكيلية نتمثل الشكل الإنسانى والحيوانى فى صفاته الحيوية الخالصة ، كما أن الشعر يكشف لنا عن طباع الإنسان ومشاعرة بوجه عام ، أما الموسيقى فهى أعلى الفنون جميعاً ، إذ أنها تكشف عن إرادة العالم ذاتها فى عالم الإيقاع والأنغام الذى تفتح آفاقه لنا : فهى فن الصورة الخالصة ، لا الصورة المكانية أو العينية الجزئية ، وهى لا تكشف لنا عن هذه العاطفة أو تلك ، وإنما عن العاطفة بما هى كذلك . فالعالم ، كما يقول « شوبنهور » ، موسيقى متجسدة ، مثلما أنه إرادة متجسدة .

وأما المرحلة النهائية للخلاص من قبضة الإرادة ، فهى مرحلة الأخلاق . ويتم الخلاص الكامل ، فى مجال الأخلاق ، بإدراك الإنسان أن الموجودات كلها تكوّن وجوداً واحداً ، أى بالقضاء على فكرة الكثرة ، أو الفردية . ذلك لأن شعور كل شخص بفرديته هو مبعث الأنانية ، وبالتالى مصدر الشرور جميعاً ، إذ يتصادم الأفراد بعضهم مع البعض ، فتنجم الرذائل الأخلاقية كلها ، من كراهية وحسد ورغبة فى القضاء على الخصم ، عن هذا التصادم . غير أن هذه الكثرة ليست إلا خداعاً ، وحين ينكشف للإنسان هذا الخداع ، ويُرفع عنه وهم الكثرة ، يصل إلى الخلاص الحقيقى ، إذ يدرك الوحدة الكامنة من وراء الكثرة الظاهرة ، ويسود العطف أو الشفقة ، وهو الشعور الذى يربط بين الأفراد بعد أن كانت الأنانية تفرق بينهم . وأفضل عقيدة دينية تمثلت فيها فكرة الوحدة هذه ، هى عقيدة الزهد عند الهنود : ففيها إماتة تامة للإرادة ، التى هى أساس الشر كله ، وفيها الخلاص الكامل من إرادة الحياة ، وذلك فى حالة « النرڤانا » ، أى محو الفردية تماماً فى حالة من الوحدة الكاملة مع الوجود فى مجموعه .

تلك ، باختصار شديد هى الأقسام الأربعة الرئيسية التى ينقسم إليها كتاب شوبنهور « العالم إرادةً وتمثلا » . ففى القسم الأول يتناول العالم من حيث هو تمثل ، أى ظاهرة فى نظر الذات ، وفى القسم الثانى يتحدث عن العالم بوصفه إرادة ، ويناقش موضوع الإرادة من حيث هى مبدأ كلى ، أو « شىء فى ذاته » ، من وراء كل مظهر . ولقد كان « شوبنهور » فى هذين القسمين فيلسوفاً محترفاً إلى حد ما ، ومن هنا يمكن القول ، بوجه عام ، أن تأثيره الأكبر فى الفكر والأدب العالمين لم ينتج عنهما ، وإنما نتج عن القسمين الثالث والرابع ، اللذين عالج فيهما العالم من حيث هو إرادة وتمثل أيضاً، ولكن من زاوية جديدة ، هى زاوية الذاتية . فهنا كان « شوبنهور » ينطق لغة جديدة تتغلغل جذورها فى أعماق النفس البشرية ، وتفيض بالتقدير الكامل لموقف

الإنسان فى العالم ، وهنا ، لأول مرة ، نجد كتاباً ضخماً يعرض مذهباً فلسفياً كاملا ، يحدثنا فصولا طويلة عميقة عن العمارة والتصوير والشعر والموسيقى ، ويجعل لهذه الفنون دوراً أساسياً فى فلسفته . وهكذا نجد آراءه فى الإرادة من حيث هى مبدأ للعالم تعود إلى الظهور فى فلسفة نيتشه وبرجسون ووليام جيمس ، ولكن بصورة مختلفة فى كل حالة ؛ أما فى ميدان الأدب والفن فقد كان تأثيره أعمق ، إذ أن عدداً كبيراً من الأدباء ، وعلى رأسهم هاردى ، وتوماس مان ، قد اعترفوا صراحة بفضل فلسفة شوبنهور عليهم ، كما أن شوبنهور كان هو الفيلسوف الأول ، والأهم ، الذى تأثر فاجنر بأفكاره ، وكان اكتشاف فلسفته بمثابة فاتحة عهد جديد فى تفكير فاجنر النظرى الذى تكوّن منه أساس بنائه الفنى . ويمكن القول ، بوجه عام ، إن ازدياد قوة الاتجاه الشخصى فى الفلسفة والفكر عامة ، خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، هو ظاهرة ترجع ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، إلى تأثير شوبنهور .

## نصوص من كتاب « العالم إرادةً وتمثلا » لشوبنهور

### أولا : العالم تمثلا

« العالم تمثلى : تلك حقيقة تصح على كل كائن حى عارف ، وإن يكن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يكون لديه وعى فكرى مجرد بها . ولو فعل ذلك حقاً ، لأشرق عليه نور الفلسفة ، وعندئذ يصبح من الواضح المؤكد له أنه لا يعرف شمساً ولا أرضاً ، وإنما عيناً ترى شمساً ويداً تلمس أرضاً ، وأن العالم المحيط به ليس هناك إلا بوصفه تمثلا ، أى بوصفه منسوباً إلى شىء آخر ، هو ذلك الذى يتمثل ، وهو أنا . ولو كان ثمت حقيقة يمكن التعبير عنها أولياً ، فهذه هى : إذ أن هذه الحقيقة تعبير عن صورة كل تجربة ممكنة يتسنى تصورها ، وهى صورة أعم من كل الصور الأخرى ، أى من الزمان والمكان والعلية ، إذ أن هذه كلها تفترضها مقدماً : وعلى حين أن كلا من هذه الصور ، التى ذكرنا أنها أحوال خاصة لمبدأ السبب الكافى ، لا يصح إلا على فئة معينة من التمثلات ، فإن التقسيم إلى موضوع وذات هو الصورة المشتركة بين هذه الفئات جميعاً ، وهذه الصورة وحدها هى التى تتيح كل تمثل . : وتجعله ممكناً . وإذن فليس ثمت حقيقة أكثر يقيناً . . من هذه الحقيقة ، وأعنى بها أن كل شىء يوجد للمعرفة ، أى كل هذا العالم ، لا يكون موضوعاً إلا بالنسبة إلى ذات ولا إدراكاً إلا بالنسبة إلى مدرك ، أى بالاختصار ، لا بد أن يكون تمثلا . . فكل شىء ينتمى أو يمكن أن ينتمى إلى العالم يرتبط حتما بهذا الشرط : شرط التوقف على الذات ، ولا يوجد إلا من أجل الذات . فالعالم تمثل » . ( الكتاب الأول — القسم الأول ) .

### ثانياً : العالم إرادةً

يشرح شوبنهور طريقة الوصول إلى فكرة الإرادة من وراء العالم الظاهرى فيقول : « سيظل هناك دائماً ( من وراء البحث فى العلل ) باق لا يرد ، ومحتوى للظواهر لا يمكن إرجاعه إلى صورته ، ولا يمكن تفسيره من خلال شىء آخر وفقاً لمبدأ السبب الكافى . إذ أن فى كل ما فى الطبيعة شيئاً لا يمكن وضع أساس له ، ولا تقديم تفسير له ، ولا البحث عن سبب آخر له . ذلك هو الطريقة الخاصة لفعل الشىء ، أى بعبارة أخرى طريقة وجوده ذاتها ، وجوهره أو ماهيته الحقيقية . .

فما يكون فى الإنسان شخصيته غير القابلة للتفسير ، وما يفترض مقدماً فى كل تفسير لأفعاله من خلال الدوافع ، إنما هو بالنسبة إلى كل جسم غير عضوى طبيعته الأساسية ، وطريقته فى الفعل ، على حين أنه هو ذاته ، من جهة أخرى ، لا يتحدد بأى شىء خارجه ، وبالتالى لا يمكن تفسيره » .

( الكتاب الثانى — القسم ٢٤ ) .

« إن الميكانيكا ، والطبيعة ، والكيمياء ، تلقننا القواعد والقوانين التى تسلك وفقاً لها قوى الصلابة والجاذبية والجمود والسيولة والتماسك والمرونة والحرارة والضوء والتجاذب الانتقائى والمغناطيسية والكهرباء ، وما إلى ذلك ، أى بعبارة أخرى القانون والقاعدة التى تلاحظ على هذه القوى فيما يتعلق بدخولها المكان والزمان فى كل حالة . ولكن مهما فعلنا ، فستظل القوى ذاتها كيفيات غامضة : إذ أن الشىء فى ذاته هو الذى يكشف بظهوره عن هذه الظواهر . . » .

( نفس القسم السابق )

ثم يحدد شوبنهور بعد ذلك ماهية ذلك « الشىء فى ذاته » ، أو القوة التى تكمن من وراء قوانين العلم وظواهره هذه ، بأنها هى الإرادة ، ويصف الإرادة بأنها : «هى القوة التى تنبت النبات . .وتوجه المغناطيس إلى القطب الشمالى. . بل هى القوة التى توجد فى الجاذبية ذاتها ، والتى يظهر أثرها فى كل مادة بوضوح ، فتجذب الأحجار إلى الأرض والأرض إلى الشمس . كل هذه . . لا تختلف إلا فى ظاهرها ، أما طبيعتها الباطنة فواحدة . . فهى الماهية الباطنة ، والقلب ، بالنسبة إلى كل شىء جزئى ، وإلى الكل أيضاً . وهى تظهر فى كل قوة عمياء للطبيعة ، وكذلك فى سلوك الإنسان الإرادى ، والفرق الهائل بين الاثنتين لا يتعلق إلا بدرجة ظهورها ، لا بطبيعتها الباطنة » .

( الكتاب الثانى — القسم ٢١ ) .

ويشرح شوبنهور كيف أن تسمية هذا الشىء فى ذاته ، أو هذه القوة الباطنة ، باسم الإرادة ، إنما هى من قبيل تسمية الظاهرة العامة باسم واحد من أهم أمثلتها ، وهو الإرادة البشرية ، فيقول :

« لهذا سأطلق على الجنس اسم أهم أنواعه ، وهو النوع الذى تكون لدينا أوثق معرفة به ، ويؤدى إلى معرفة غير مباشرة بكل شىء آخر . أما من لم يستطع فهم اللفظ بالمعنى الواسع المطلوب ، فسيظل دائماً على خطأ : إذ لن يفهم من كلمة « الإرادة » إلا ذلك النوع الذى اقتصر اللفظ حتى الآن على الدلالة عليه ، أى الإرادة التى توجهها المعرفة بدقة حسب دوافع ، بل حسب دوافع مجردة ، وتسير بارشاد ملكة العقل . هذا ، كما قلنا ، هو أوضح مظاهر الإرادة وأكثرها تميزاً . ولكن علينا الآن أن نفصل فى أذهاننا الطبيعة الباطنة لهذه الظاهرة ، والمعروفة لنا مباشرة ، وننقلها إلى كل الظواهر الأضعف والأقل تميزاً للماهية ذاتها ، وبهذا نحقق الامتداد المطلوب لتصور الإرادة . . ولقد كان تصور الإرادة حتى الآن يدرج تحت تصور القوة ، أما أنا فأفعل العكس ، وأرى أن كل قوة فى الطبيعة ينبغى أن تُتصور على أنها إرادة . ومن الواجب ألا نرى فى هذا مجرد اختلاف فى الألفاظ ، أو مسألة لا أهمية لها ، إذ أن لهذا الأمر — على عكس ذلك — أهمية قصوى . فمن وراء تصور القوة ، كما هى الحال فى كل تصور آخر ، تكمن معرفة العالم الموضوعى من خلال الإدراك الحسى ، أى بعبارة أخرى الظاهرة والتمثل الذى يستمد منه التصور . فهذا اللفظ مستخلص بالتجريد من المحال الذى يسوده العلة والمعلول . . أما تصور الإرادة فهو الوحيد ، من بين سائر التصورات الممكنة ، الذى لا يرجع أصله إلى الظاهرة ، ولا إلى مجرد تمثل الإدراك ، بل يأتى من الباطن ، ويستمد من أقرب وعى مباشر لكل شخص . . وإذن فنحن إذا أرجعنا تصور القوة إلى تصور الإرادة ، إنما نكون قد

أرجعنا شيئاً مجهولا تماماً إلى شيء معروف لنا حق المعرفة ، بل إلى الشيء الوحيد الذى نعرفه معرفة مباشرة كاملة » .

( الكتاب الثانى — القسم ٢٢ ) .

## ثالثاً : ماهية الفن

عند تحديد شوبنهور لماهية الفن ، يتساءل أولا : « أى نوع من المعرفة ذلك الذى يتعلق بما هو مستمر فى وجوده خارج جميع العلاقات ومستقلا عنها ، وبما هو وحده الأساسى فى العالم ، والمحتوى الحقيقى لظواهره ، وما لا يسرى عليه التغير ، وبالتالى ما يعرف بحقيقة لا يؤثر فيها الزمان ، أى الاختصار ، ذلك الذى يتعلق « بالمُثُل » التى هى الموضوعية المباشرة المطابقة للشيء فى ذاته وللإرادة ؟ إنه الفن ، نتاج العبقرية . وفى الفن تتكرر المثل الأزلية المدركة عن طريق التأمل الخالص ، أى ذلك العنصر الأساسى الباقى فى كل ظواهر العالم . وهو يكون نحتاً أو تصويراً أو شعراً أو موسيقى تبعاً للمادة التى تتكرر فيها هذه المُثُل . ومصدره الوحيد هو معرفة المُثُل ، وهدفه الوحيد هو نقل هذه المعرفة إلى الآخرين . وإنا لنجد أن العلم ، الذى يساير على الدوام تياراً قلقاً غير مستقل ، هو تيار الأشكال الرباعية للأسباب أو الأسس والنتائج ، يكتشف طريقاً جديداً بعد كل غاية يبلغها ، ولا يمكنه أن يهتدى أبداً إلى هدف نهائى أو يصل إلى الرضاء التام ، تماماً كما لا يمكننا بالجرى أن نصل إلى النقطة التى تتلامس فيها السحب مع الأفق . أما الفن فهو على الدوام بالغ هـــدفه . ذلك لأنه يلتقط موضـــوع تأمله من مجرى التيار الذى يسير فيه العالم ، ويستبقيه أمامه منعزلا . وبذلك يصبح هذا الشيء الخاص ، الذى كان داخل ذلك التيار جزءاً متناهياً فى الصغر ، ممثلا للكل فى نظر الفن ، ومعادلا للكثرة اللامتناهية فى المكان والزمان . وهكذا يتوقف الفن أمام هذا الشيء الخاص ، ويوقف عجلة الزمان ، وتختفى العلاقات بالنسبة إليه ، ولا يعود له من موضوع إلا ما هو أساسى ، أى « المثال » ، وبذلك يمكننا تعريف الفن على وجه الدقة بأنه طريقة النظر إلى الأمور على نحو مستقل عن مبدأ السبب الكافى ، وذلك مقابل طريقة النظر إليها على نحو يراعى فيه هذا المبدأ بدقة ، وهى طريقة العلم والتجربة » .

( الكتاب الثالث — القسم ٣٦ )

فاذا تساءل القارئ عن معنى طريقة النظر إلى الأمور على نحو مستقل عن مبدأ السبب الكافى هذه ، فان شوبنهور يوضحها بأنها طريقة : « لا نعود ( فيها ) ننظر فى الأشياء إلى الأين والمتى و « لم » و « إلى أين » ، وإنما ننظر إلى « ما هى عليه » فقط . ولا ندع التفكير المجرد وتصورات العقل تستحوذ على ذهننا ، بل نكرس كل قوة العقل للإدراك ، ونستغرق فيه تماماً ، وندع وعينا بأسره يمتلىء بالتأمل الهادئ للشيء الطبيعى الماثل بالفعل أمامه ، سواء أكان ذلك الشيء منظراً طبيعياً ، أم شجرة ، أم صخرة أم جلموداً أم بناء أم أى شيء آخر . فهنا « نفقد » أنفسنا تماماً فى هذا الموضوع ، إذا شئنا أن نستخدم هذا التعبير المثقل بالمعانى ، أى أننا ، بعبارة أخرى ، ننسى فرديتنا وإرادتنا ، ولا نظل نوجد إلا بوصفنا ذاتاً خالصة ، ومرآة صافية للشيء ، بحيث يبدو كأن الشيء يوجد وحده دون أن يدركه أحد ، فلا يعود فى وسعنا التميز بين المدرك والمدرك ، وإنما يصبح الاثنان واحداً ، ما دام الوعى بأكمله يمتلىء ويشغل بصورة إدراكية واحدة . فاذا أصبح الموضوع مستقلا إلى هذا الحد عن كل علاقة له بشيء خارج عنه ، وإذا أصبحت الذات مستقلة إلى هذا الحد عن كل علاقة لها بالإرادة ، فان ما يعرف عندئذ لا يعود هو الشيء الفردى بما هو كذلك ، وإنما هو « المثال » ، والصورة الأزلية ، والموضوعية المباشرة للإرادة فى هذه المرحلة . وبالمثل فان الشخص الذى يكون لديه إدراك كهذا ، لا يعود فى الوقت ذاته فرداً ، إذ أن

الفرد قد فقد ذاته فى هذا الإدراك ، وإنما يصبح « ذاتاً عارفة » ، خالصة بلا إرادة ، وبلا ألم ، وبلا زمان » .

( الكتاب الثالث — القسم ٣٤ ) .

وإذا كان شوبنهور فى النص السابق قد حدد ماهية الفن بوجه عام ، فإنه يجعل للفن الموسيقى مكانة خاصة ، ويوضح طبيعته فى نصوص كثيرة من أهمها :

« . . . إن فى إمكاننا أن ننظر إلى عالم الظواهر أو الطبيعة ، وإلى الموسيقى ، على أنهما تعبيران مختلفان عن شىء واحد . . فالموسيقى ، إذا ما نظر إليها على أنها تعبير عن العالم ، تغدو — بأكمل معانى الكلمة — لغة عالمية ترتبط بالتصورات الشاملة ، مثلما ترتبط هذه بالأشياء الجزئية . ومع ذلك فان طابع الشمول فيها ليس ذلك الشمول الفارغ الناتج عن التجريد ، وإنما هو من نوع مختلف تماماً : فهو يقترن بتميز دقيق لا لبس فيه ولا غموض . والموسيقى فى هذا أشبه بالأشكال الهندسية والأعداد ، التى هى صور كلية لجميع الموضوعات الممكنة للتجربة ، تنطبق على هذه الموضوعات جميعاً بطريقة أولية ، ولكنها مع ذلك ليست مجردة ، بل هى قابلة للإدراك الحسى ، وهى محددة بكل دقة . وهكذا فإن كل جهد تبذله الإرادة ، وكل سوراتها وتجلياتها ، وكل الحوادث التى تقع داخل الإنسان ذاته ، والتى تدرجها ملكته العاقلة ضمن تلك الفئة الواسعة السلبية ، فئة المشاعر ، يمكن أن يعبر عنها ذلك العدد اللامتناهى من الألحان الممكنة ، ولكن ذلك التعبير يكون له دائماً شمول الصورة الخالصة ، دون أية مادة ، ويكون دائماً متعلقاً بما يوجد فى ذاته ، لا بالمظهر ، أى بأعمق أغوار النفس من غير الجسم . هذه العلاقة الوثيقة للموسيقى بالطبيعة الحقة للأشياء جميعاً تفسر لنا أيضاً حقيقة هامة ، هى أنه عندما تعزف موسيقى ملائمة لأى منظر أو فعل أو حادث أو بيئة ، فإنها تبدو وكأنها تكشف لنا عن أدق معانيه خفاء ، وتظهر وكأنها أفضل شرح وأدق تميز له . وفضلا عن ذلك ، فإنه يبدو للأنسان الذى ترك سيمفونية تتغلغل فى نفسه بلا قيود ، أنه قد رأى كل الحوادث الممكنة فى الحياة وفى العالم تمر أمامه داخل ذاته . ومع ذلك ، فلو أمعن التفكير فى الأمر لما وجد أى تشابه بين قطعة الموسيقى وبين الأشياء التى مرت بذهنه . ذلك لأن الموسيقى كما قلنا تختلف عن كل الفنون الأخرى فى أنها لا تصور الظاهرة ، أو بتعبير أدق ، لا تصور موضوعية الإرادة المطابقة ، وإنما هى تصوير مباشر للإرادة ذاتها ، وبالتالى فهى تعبر عن الماهية الميتافيزيقية لكل ما يوجد فى عالم الأشياء ، وعن الشىء فى ذاته بالنسبة إلى كل ظاهرة . وهكذا يمكننا أن نسمى العالم موسيقى متجسدة مثلما يمكننا أن نسميه إرادة متجسدة » .

( الكتاب الثالث — القسم ٥٢ ) .

## رابعاً : الطريق إلى الخلاص

فى مجموعة النصوص التى أدرجت تحت الفئة « ثالثا » ، حدد شوبنهور ماهية الفن ، وأوضح فى الوقت ذاته طريقاً مؤقتاً إلى خلاص النفس من قيود الإرادة . وهو فى النص الآتى يوضح الطريق النهائى لخلاص الإنسان ، وهو إماتة إرادة الحياة ، والتخلص من مبدأ الفردية فى ذاته :

« لا يوجد إلا خطأ فطرى واحد ، هو الفكرة القائلة إننا نوجد لنكون سعداء . . فما نحن إلا إرادة للحياة ، ونحن لا نفهم من السعادة إلا أنها الإرضاء المتعاقب لإرادتنا .

وطالما ظللنا واقعين فى هذا الخطأ الفطرى ، الذى يزداد رسوخاً فينا بفضل المعتقدات التفاؤلية ، فان العالم يبدو لنا حافلا بالمتناقضات . ذلك لأننا نشعر حتما فى كل خطوة ، وفى كل الأشياء كبيرها وصغيرها ، بأن العالم والحياة لم ينظما أبداً بقصد ضمان حياة سعيدة لنا . . وفضلا عن ذلك ، فان كل يوم مر فى حياتنا حتى الآن قد علمنا أنه حتى فى الحالات التى تتحقق فيها أفراح

ولذات ، تكون هذه فى ذاتها خداعة ، ولا تؤدى إلى النتائج التى تعدنا بها ، ولا ترضى قلوبنا ، فضلا عن أن الحصول عليها يقترن على الأقل بالمرارة التى يبعثها ما يرتبط بها أو ما ينبثق عنها من الآلام والمنغصات . أما الآلام والأحزان فتثبت أنها حقيقية إلى أبعد حد ، وكثيراً ما تتجاوز كل ما نتوقعه . وهكذا فإن كل ما فى الحياة قد رسم بحيث يؤدى بنا إلى الرجوع عن هذا الخطأ الفطرى ، وإلى إقناعنا بأن القصد من وجودنا هو ألا نكون سعداء . . أما من تخلص بطريقة ما من ذلك الخطأ الأولى الكامن فينا ، ومن ذلك التزييف الأول فى وجودنا ، فسرعان ما يرى كل شىء فى ضوء مخالف ، ويجد أن هذا العالم متفق مع إدراكه ، وإن لم يكن متفقاً مع رغباته : فلا تعود مظاهر البؤس ، مهما كان نوعها أو مقدارها ، تثير فيه دهشة ، وإن كانت تبعث فيه الألم ، إذ أنه قد أدرك أن الألم والشقاء هما ذاتهما اللذان يحققان الغاية الصحيحة للحياة ، ألا وهى انصراف الإرادة عنها . . .

والذى يحدث عادة هو أن القدر يمر على نحو حاسم بذهن الإنسان وهو فى عنفوان رغباته وأمانيه ، وعندئذ تتحول حياته تحولا أساسياً فى اتجاه الألم ، وعن طريق هذا التحول يتحرر من الرغبة المنفعلة التى يكون كل وجود فردى مظهراً لها ، ويصل إلى النقطة التى يغادر فيها الحياة ولم تبق لديه أية رغبة فيها وفى ملذاتها . بل إن الألم ، فى الواقع ، هو عملية التطهير التى يصل الإنسان بها وحدها إلى القداسة ، أى يرجع بها عن ذلك الطريق الضال ، طريق إرادة الحياة »

( المجلد الثانى الفصل ٤٩ ) :

وفى هذا النص الأخير يربط شوبنهور بين مذهبه فى الخلاص ، وبين أخلاق الزهد والعطف فيقول :

« إذا ما رفع « حجاب المايا »[1] ، وأعنى به «مبدأ الفردية » principuum individuationis ، عن أعين المرء حتى لا يعود يميز على نحو أنانى بين ذاته وأشخاص الآخرين ، وإنما يهتم بآلام غيره مثلما يهتم بآلامه هو ، وبذلك لا يكون خيراً ومحسناً إلى أقصى مدى فحسب ، بل يكون أيضاً على استعداد للتضحية بفرديته إذا ما كان فى ذلك إنقاذ لعدة أفراد آخرين — فلا بد أن شخصاً كهذا . . سينظر إلى آلام كل حى على أنها آلامه هو ، وبذلك يأخذ على عاتقه عذاب العالم أجمع . . فكيف يتسنى له ، بمعرفته هذه للعالم ، أن يؤكد نفس هذه الحياة عن طريق أفعال إرادية دائمة ، وبذلك يُزيد نفسه تقيداً بها ، ويغدو أشد تعلقاً بأهدابها ؟ . . إن الإرادة تنصرف عندئذ عن الحياة ، وتفر من تلك اللذات التى ترى فيها تأكيداً للحياة . فهنا يبلغ الإنسان حالة العزوف الإرادى ، والاستسلام ، والهدوء الكامل ، والقهر التام للإرادة . . ولما لم يكن الإنسان أصلا إلا مظهراً للإرادة ، فانه يكف عن توجيه إرادته إلى أى شىء ، ويحذر من تعلق إرادته بأى شىء ، ويحاول أن ينمى فى نفسه عدم الاكتراث التام بالأشياء جميعاً » .

( الكتاب الرابع — القسم ٦٨ ) .

---

( ١ ) أى القوة الكونية الخداعة التى تصور لنا الوهم حقيقة .